المبحث الأوَّل

جهود علماء العربية القدامى[1] في الدراسات الصوتيَّة:

ظهرت الدراسات الصوتيَّة عند العرب أوَّل ما ظهرت في أربع مجموعات من الدراسات، هي: الدراسات اللغويَّة، والبلاغيَّة، والقرآنيَّة، والعقديَّة أو الكلاميَّة؛ لذلك فقد ظهرت بوادر الدراسات الصوتية بنسب متفاوتة في كل من هذه الدراسات الأربع، وسنتناول طرفا من كلّ واحدة منها في ما يأتي:

المطلب الأوَّل الدراسات اللغويَّة:

❖ **الخليل بن أحمد الفراهيديُّ** (ت: **١٧٥هـ**): جاء بعد أبي الأسود الدؤلِّي الخليل رحمهما الله، قدّم تصنيفاً للأصوات حسب موضع النُطق، أو حسب الأحياز والمخارج، كما قال، وقد أدّى به ذلك التصنيف إلى تقسيم الأصوات، إلى ما يُعرف الآن بالصوامت، والصوائت، فكان بهذا «أوَّل من التفت إلى صلة الدرس الصوتي بالدراسات اللغوية الصرفية، الصرفية والنحوية، ولذلك كان للدراسة الصوتية من عنايته نصيب كبير، فقد أعاد النظر في ترتيب الأصوات القديمة، الذي لم يكن مبنياً على أساس منطقيّ، ولا على أساس لغويّ، فرتبها بحسب المخارج في الفم، وكان ذلك فتحاً جديداً، لأنه كان منطلقاً إلى معرفة خصائص الحروف وصفاقما[2]، فمن ينظر في مقدِّمة

---

(١) العلماء القدامى: مصطلح يراد به علماء العربيَّة منذ بواكير دراساقم في القرن الأوَّل الهجريّ إلى قيام دولة محمَّد على في مصر في بداية القرن الثاني عشر الهجريّ؛ لأنّ جهود العرب كانت في الغالب مبتكرة مؤثِّرين في غيرهم أكثر من تأثُّرهم بغيرهم. المؤلِّفان.

(٢) في النحو العربي قواعد وتطبيق: ٤.

معجمه العين يتبيَّن له على إيجازها أنَّها أول مادة في علم الأصوات دلَّت على أصالة علم الخليل، وأصل مادته اللغوية، ليكون بحق صاحب هذا العلم المؤسسّ له، ورائده الأول[1].

وممَّا يزيد من أهمِّيَّة جهود الخليل رحمه الله أنَّه توصل إلى ما توصل إليه ابتداعاً وابتكاراً، دون الاستعانة بأي جهاز علمي، إذ لا جهاز آنذاك، وهو مالم يثبت العلم التشريحي الحديث بكل أجهزته الدقيقة، ومختبراته الضخمة خلافاً له فيما يبدو إلا يسيراً[2].

إنّ الخليل في ذائقته الصوتية هذه، قد قلب حروف العربية، فوضعها في منازل معينة ضمن مخارج صوتية معينة بحسب مدارج مقدرة من أقصى الحلق حتى إطباق الشفة في الميم، ولم يكتف بهذا التقسيم الفيزيائيِّ الدقيق بحسب تذوقه الخاص، بل نصّ على تسمية كلِّ قسم من هذه الأقسام، وأفاد اللغات العالمية جمعاء، بأصل من الأصول الأولى في الاصطلاحات الصوتيَّة دون أن يسبقه إلى ذلك سابق من السلف، بل عوّل عليه فيه كل لاحق من الخلف.

١- لقد أدرك الخليل بفطرته الصافية، وحسّه المتوقّد، أهمية الصوت اللغوي في الدراسات اللغوية المتخصصة، فأشار إلى أبعادها من ينابيعها الأولى، فوضع يده على الأصول في انطلاق الأصوات من مخارجها الدقيقة، وأفرغ جهده الدؤوب في التماس التسميات للمسميّات فطبّق بها المفصل، وتمكن من استنباط طائفة صالحة من الأسرار الصوتية من هذا الخلال، لذلك فقد كان صحيحاً ما توصل إليه محقِّقا العين أنَّ في المقدِّمة

---

(١) ينظر: العين، مقدِّمة المحقِّق: ١/ ١٠.

(٢) العين: ١/ ٥٨.

منه «بواكير معلومات صوتية لم يدركها العلم فيما خلا العربية من اللغات إلا بعد قرون عدة من عصر الخليل»[1].

٢- يبتدع الخليل في هذه المقدمة أمراً ذا أهمية قصوى في حياة الأصوات، فيصنع- وبدقة متناهية. مخطَّطاً شاملاً لمخرج كل صوت، ويقارن بين بعض الأصوات، فيضعها في حيّز متميز عن حيّز الأصوات الأخرى، ويعطي بعض الخصائص المفرقة لصوت عن صوت، ويعالج إلحاق بعض الأصوات ببعض المخارج دون سواها، فتقف عند العلة والسبب، وتستظهر العلة التي تخفى ولا تكاد تبين.

٣- في هذه المقدمة: إشارات صوتية، وإشارات لغوية، وقد يدخل الملحظ الصوتي ضمن الملحظ اللغوي كما فعل الخليل هذا لدى حديثه عن ألف الخماسي باعتبارها ليست أصلية فقال: «أدخلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها من الكلام لتكون الألف عماداً سلماً للّسان إلى حرف البناء لأن اللسان لا ينطلق بالساكن من الحروف فيحتاج إلى ألف الوصل»[2].

فهو يراعي هذا التمازج الصوتي في اللغة مبيِّنا أنَّ الاسم لا يكون أقل من ثلاثة أحرف: حرف يبتدأ به، وحرف يحشى به الكلمة، وحرف يوقف عليه، فهذه ثلاثة أحرف، فإن صيرت الثنائي مثل: قد، هل، لو، أسماً أدخلت عليه التشديد فقلت: هذه لوٌّ مكتوبة، وهذه قدٌّ حسنة الكتبة، زدت واواً على واو لو، ودالاً على دال قد، ثم أدغمت وشدّدت. فالتشديد علامة الإدغام الحرف الثالث[3].

---

(١) ينظر: أثر القراءات في الأصوات والنحو العربيِّ: ١٦٧.

(٢) ينظر: العين، مقدِّمة المحقِّق: ١/١١.

(٣) ينظر: العين: ١/٤٩-٥٠.

إنَّ هذا الاهتمام السليم في ربط اللغة بالصوت، واعتبار الصوت امتداداً للبنية التركيبيَّة، وأصلاً للأفكار المنظورة في اللغة، هو الذي توصل إليه بعد قرون عدة الأستاذ اللغوي فرديناند دي سوسير في أن اللغة فكرة منظمة مقرونة بالصوت من خلال تأمل عنصرين يشتركان في تأدية اللغة لوظيفتها، وهما: الأفكار والأصوات من خلال الربط بينهما كما صنع الخليل.

قال جملة من الأساتذة في جهود الإمام الخليل رحمه الله: «ومن أحسن ما عرض له العرب في دراسة الأصوات ما نجده عند الخليل من وصف الجهاز الصوتيِّ، وهو الحلق والفم إلى الشفتين، وتقسيمه إياه إلى مناطق ومدارج يختص كل منها بحرف أو مجموعة حروف، وما أشار إليه من ذوق الحروف لبيان حقيقة المخرج، فقد هدي بذكائه المتفوق في ذلك إلى مقاييس صحيحة أقرّ كثيراً منها علماء الأصوات المحدثون»(١).

❖ **سيبويه عمرو بن قنبر (ت: ١٨٠هـ)**: واصل سيبويه طريق أستاذه الخليل بن أحمد رحمهما الله، فقدّم دراسة للأصوات أوفى وأكثر دقّة، إذ جاء تصنيفه لها بحسب المخارج، وبحسب ما يُعرف الآن بوضع الأوتار الصوتية، ممّا سمّاه سيبويه بالجهر والهمس، ثم بحسب طريقة النطق، لنجد الأصوات الشديدة و الرِّخوة وما بين الشديدة والرخوة. ويمكن القول إن دراسة الخليل وسيبويه للأصوات، قامت على مبدأ علمي صحيح، حيث درساها دراسة وصفيِّة واقعية قائمة على الملحوظة الذاتيَّة، وبعيدة عن الافتراض والتأويل، سائراً في ذلك على خطى أستاذه، لكنَّه خالفه قليلاً في صفات الأصوات، وأضاف إلى هذا العلم ما يشهد له بقدم السبق فيه، فقد

---

(١) سر صناعة الاعراب، مقدِّمة التحقيق: ١/١٣.

وضع قضايا الإدغام، وحدَّدَ بدقَّة صفات الحروف ومخارجها. وكان علماء النحو والقراءة من بعده يسيرون على مذهبه(١).

ولو تركنا الخليل ذاته إلى من تأثر بمدرسته لوجدنا جهوداً صوتية متناثرة، تستند في أغلبها إلى مبتكرات الخليل، توافقه حيناً، وتخالفه حيناً آخر. فأعضاء النطق مثلاً عند الخليل وعند سيبويه (ت: ١٨٠هـ) واحدة، والحروف في مدارجها، ويعني بها الأصوات تبعاً للخليل، تبدأ بأقصى الحلق، وتنتهي بالشفتين، فهي عند سيبويه كما هي عند الخليل(٢).

ولكنَّ ترتيب الحروف في كتاب سيبويه تخالف ترتيب الخليل، فحينما وضع الخليل الأبجدية الصوتية للمعجم العربي مبتكراً لها، خالفه سيبويه في ترتيب تلك الأصوات، إذ بدأ بالهمزة والألف والهاء، وقدّم الغين على الخاء، وأخّر القاف عن الكاف وهكذا، وقد كان لجهوده في الدراسات الصوتيَّة فضل لا ينكر، فتصنيفه لصفات الأصوات في الجهر والهمس والشدة والرخاوة والتوسط، وكشفه لملامح الإطباق واللين، وتمييزه لمظاهر الاستطالة والمد والتفشي، كل أولئك مما يتوّج جهوده بالأصالة والابتكار.

ولسيبويه قدم سبق مشهود له في قضايا الإدغام، وهي معالم صوتية في الصميم، فقد قدم لها بدراسة علم الأصوات، كما قدّم الخليل معجمه بعلم الأصوات، فالخليل قد ربط بين اللغة والصوت، وسيبويه قد ربط بين قضايا الصوت نفسها، لأنَّ الإدغام قضيَّة صوتيَّة «ونحن نقرر هنا مطمئنين أن سيبويه قد وضع قواعد هذا البحث وأحكامه لا لفترة معينة من الزمن، بل

---

(١) أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: ١٩٨.

(٢) الكتاب: ٢/٤٠٥.

يكاد يكون ذلك نهائياً، وكان تصرفه فيها تصرفاً رائعاً، صادراً عن عبقرية سبقت الزمن، فلم يكن ممن جاء بعده من العلماء والباحثين إلا أن اتبعوا نهجه، واكتفوا بما قال، ولم يزيدوا بعد سيبويه على ما قال حرفاً، بل أخدوا يرددون عباراته مع كتبهم، ويصرّحون بأنّهم إنّما يتّبعون مذهبه، سواء في ذلك علماء النحو وعلماء القراءة»(١).

وقد يكون في هذا الحكم مبالغة، ولكنه مقارب للحقيقة في كثير من أبعاده، إذ كان سبّاقاً إلى الموضوع بحقٍّ.

ومما يجلب الانتباه حقاً عند سيبويه في صفات الحروف ومخارجها، هو تمييزه الدقيق بين صفة الجهر وصفة الهمس فيما أشرنا له في الفصل السابق فمصدر الصوت المجهور يشترك فيه الصدر والفم، ومصدر الصوت المهموس من الفم وحده، وبمعنى آخر أن للرئتين عملاً ما في صفة الجهر، بينما ينفرد الفم بصفة الهمس(٢).

فتعريف المجهور عنده: «حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه، ويجري الصوت. بينما المهموس: حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه»(٣).

وهو يعبّر بالموضع هنا عن المخرج فيما يبدو، ويجري الصوت عن الشيء الإضافي في حالة الجهر عن حالة الهمس التي يجري النفس معها لا الصوت.

---

(١) أثر القراءات في الأصوات والنحو العربيّ: ١٩٨.

(٢) الكتاب: ٢/٢٨٤.

(٣) المصدر نفسه: ٢/٤٠٥.

«وقد ظلت محاولة سيبويه تفسير المجهور والمهموس من الأصوات قانوناً سار عليه جميع من جاء بعده من النحاة والقراء. إلى أن جاءت بحوث المحدثين فصدقت كثيراً مما قاله في هذا الباب»[١].

ومن المفيد الرجوع إلى ما فسّره في هذا المجال المرحوم الدكتور ابراهيم أنيس فقد أشبعها بحثاً وتنويراً[٢]، ومع كلٍّ ما قدَّمه سيبويه من جهود في الدراسات الصوتيَّة فهو لا ينفصل عن المدرسة التي ابتدأها أستاذه الخليل في اللغة والأصوات، فهو الممثل الحقيقي لها فيما نقل لنا من علم الخليل في الكتاب.

❖ **أبو بكر ابن دريد (ت: ٣٢١هـ)**: بقيت مدرسة الخليل الصوتية مناراً يستضاء به في كثير من الأبعاد لمن جاء بعده فهذا ابن دريد، يذكر في مقدمة الجمهرة إفاضات الخليل بعامَّة، ويضيف إليها إضافات في ائتلاف الحروف والأصوات، ولكنَّه لم يخرج عن المنهج الذي ابتدأه الخليل، كما أنَّ له اجتهاداته الصوتية في أكثر الحروف وروداً في الاستعمال، فأكثرها الواو والياء والهاء، واقلها الظاء ثم الذال ثم الثاء ثم الشين ثم القاف ثم الخاء ثم النون ثم اللام ثم الراء ثم الباء ثم الميم[٣]، ولا تعلم صحة هذا الاجتهاد إلا بالإحصاء، وليس كثيراً على ابن دريد الإحصاء والاستقصاء.

❖ **أبو الفتح عثمان بن جنِّيٍّ (ت: ٣٩٢هـ)**: وهكذا تتّصل جهود علماء العرب القدامى في دراسة الأصوات حتى نصل إلى ابن جنيّ، الذي نهض بأعباء الصوت اللغوي بعد مدرسة الخليل بما يصحُّ أن نطلق عليه اسم

(١) أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: ٢٠٥.

(٢) الأصوات اللغوية: ٩٢ وما بعدها.

(٣) ينظر: جمهرة اللغة، ابن دريد: ٣٠٦/١.

الفكر الصوتي، متجاوزاً مرحلة البناء والتأسيس إلى مرحلة التأصيل[1]، فكان أستاذ هذا العلم دون منازع، ومؤصِّل هذا الفنِّ وواضع أُسسه، وأوَّل مضيف له إضافات مهمَّة ذات قيمة منهجيَّة في الدراسات الصوتية، الذي أدرك طبيعة الترابط بين الصوت واللغة والوظيفة اللغوية، بتعرفه للُّغة: بـ«أنَّها أصوات يُعبِّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم»[2]، وقد عُني أبو الفتح بدرس القراءات القرآنية في المحتسب، متعرضاً فيه لقضايا الصوت، وأفرد كتابه: "سر صناعة الإعراب" لمباحث صوتيَّة في غاية الأهمِّيَّة، كما خصَّص مباحث في كتابه "الخصائص" للدلالة الصوتيَّة، وكلُّ ما قدَّمه كان غاية في الدِّقَّة، ممَّا جعله في عداد المبدعين، وخطط لموضوعات الصوت مما اعتبر فيه من المؤصلين، ويمكن أن نشير إلى أهمِّ ابتكارات هذا الجهبذ اللغويّ وهي:

أ - إنَّ ابن جني كان أول من استعمل مصطلحاً لغوياً للدلالة على هذا العلم ما زلنا نستعمله حتى الآن وهو «علم الأصوات».

ب- إنَّ ابن جني يعدّ الرائد في هذه المدرسة، وكان على حق في قوله في كتابه: «وما علمت أن أحدا من أصحابنا خاض في هذا الفن هذا الخوض، ولا أشبعه هذا الإشباع»[3].

وأمَّا جهوده في هذا ميدان في الدراسات الصوتيَّة والمباحث التي تناولها فيه فهي:

١- الصوامت من الحروف والصوائت.

---

(١) ينظر: الصوت اللغوي في القرآن، محمد حسين علي الصغير: ٥٦.

(٢) الخصائص: ١/٣٤.

(٣) سر صناعة الإعراب: ١/٧٠.

٢- علاقة اللهجات بالأصوات.

٣- علاقة الإعراب بالأصوات.

٤- التقديم والتأخير في حروف الكلمات وتأثيرهما على الصوت.

٥- علاقة الأفعال بالأصوات.

٦- الإعلال والإبدال والإدغام وأثرها في الأصوات.

٧- الأصوات وعلاقتها بالمعاني.

٨- زيادة المبنى الصوتي وأثره في المعنى.

٩- تتبع الحروف في المخارج، ورتّبها ونظّمها على مقاطع مستفيداً بما ابتكره الخليل، إلا أنه كان مخالفاً له في الترتيب، وموافقاً لسيبويه في الأغلب إلا في مقام تقديم الهاء على الألف، وتسلسل حروف الصفير[1].

١٠- أضاف إتماماً لنظريته في الأصوات: ستة أحرف مستحسنة على حروف المعجم العربي، وثمانية أحرف فرعية مستقبحة، ولا يصح ذلك عنده إلا بالسمع والمشافهة، حتى تكون حروف المعجم مع الحروف الفرعية المستحسنة خمسة وثلاثين حرفاً، وهما مع الحروف الفرعية المستقبحة ثلاثة وأربعون حرفاً.

ولا معنى لهذه الإضافات من قبله لو لم يكن معنياً بالصوت، فحروف العربية تسعة وعشرون حرفاً، لا شك في هذا، ولكن الحروف المستقبحة والمستحسنة التي أضافها، وإن لم يكن لها وجود في المعجم العربي، إلا أن لها أصواتاً في المخارج عند السامعين، وهو إنما يبحث في الأصوات فأثبتها، فعادت الأصوات في العربية عنده ثلاثة وأربعين صوتاً، وهو إحصاء دقيق، وكشف جديد، وتثبيت بارع.

---

(١) وازن بين: سيبويه، الكتاب: ٢/٤٠٥، وابن جني، سر الصناعة: ١/٦٠-٦١.

وقد ذهب ابن جني في هذه الحروف مذهباً فنياً تدل عليه قرائن الأحوال، فهو يعطي استعمالها في مواطنه، وتشخيصها في مواضعه، فالحروف المستحسنة عنده، يؤخذ بها في القرآن وفصيح الكلام، وهي:

«النون الخفيفة، والهمزة المخففة، وألف التفخيم، وألف الإمالة، والشين التي كالجيم، والصاد التي كالزاي... والحروف الفرعية المستقبحة، هي فروع غير مستحسنة، لا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر، ولا تكاد توجد إلا في لغة ضعيفة مرذولة، غير متقبلة، وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالميم»[1].

١١- بيَّن ابن جني مخارج الحروف وهي عنده ستة عشر مخرجاً، ناظراً إلى موقعها في أجهزة النطق، ومنطلقاً معها في صوتيتها، ويسير ذلك بكل ضبط ودقة وأناقة، فيقول:

واعلم أن مخارج هذه الحروف ستة عشر، ثلاثة منها في الحلق -إلى أن يصل إلى آخر المخارج وهو- الخياشيم، مخرج النون الخفيفة، ويقال الخفيفة أي: الساكنة، فذلك ستة عشر مخرجاً[2].

وحينما يتابع ابن جني مسيرته الصوتية في مخارج هذه الحروف، نجده متمحضاً لها في دقة متناهية بما نعتبره أساساً لما تواضع عليه الأوروبيون باسم الفونولوجي أي «التشكيل الأصواتي» أو هو النظام الصوتي في تسمية دي سوسير[3].

---

(١) سر صناعة الاعراب: ٥١/١.

(٢) ينظر: سر صناعة الإعراب: ٦٠/١-٦١.

(٣) ينظر: علم اللغة العام، دي سوسير: ص٢٠.

١٢- نشأة اللغة: ممَّا تطرَّق له ابن جني في الدراسات الصوتيَّة هو موضوع نشأة اللغة، وأثر المسموعات الصوتية في نشوء اللغات الإنسانية، مشيراً في الوقت نفسه إلى نظرية محاكاة الأصوات في بابي: تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، وإمساس الألفاظ أشباه المعاني.

إنَّ هذه المميِّزات في جهود ابن جنِي في الدراسات الصوتيَّة تبيِّن للقارئ عمق الفكر الصوتي عند ابن جني، إذ يعرض فيه عصارة تجاربه الصوتية دقيقة منظّمة، ويتفرغ لبحث أصعب المشكلات الصوتية بترتيب حصيف يتنقل فيه من الأدنى إلى الأعلى، ومن البسيط إلى المركب حتى إذا تكاملت الصورة لديه، بدأ بالبحث المركز، فلا ترى حشوة ولا نبوة، ولا تشاهد تكرارا أو اجتراراً، فأنت بين يدي مناخ جديد مبوبّ بأفضل ما يراد من التصنيف والتأليف، فلا تكاد تستظهر علما مما أفاض حتى يلاحقك علم مثله كالسيل اندفاعاً.

❖ **أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥هـ)**: تركَّز جهد الإمام أحمد بن فارس على ظاهرة صوتية مهمَّة، وهي أصل الكلمة أي: الأصوات التي تدل على معنى مشترك، وما زاد على الأصل، أي: الأصوات التي تعطي معنى زائدا على المعنى الأوَّل، أي: أثر الإبدال الصوتي في تغير الدلالة، وأوضح ذلك في أوَّل كتابه "مقاييس اللغة" فقال: «إنَّ لِلُغَةِ الْعَرَبِ مَقَايِيسَ صَحِيحَةً، وَأُصُولاً تَتَفَرَّعُ مِنْهَا فُرُوعٌ. وَقَدْ أَلَّفَ النَّاسُ فِي جَوَامِعِ اللُّغَةِ مَا أَلَّفُوا، وَلَمْ يُعْرِبُوا فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَنْ مِقْيَاسٍ مِنْ تِلْكَ الْمَقَايِيسِ، وَلَا أَصْلٍ مِنَ الْأُصُولِ. وَالَّذِي أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ بَابٌ مِنَ الْعِلْمِ جَلِيلٌ، وَلَهُ خَطَرٌ عَظِيمٌ. وَقَدْ صَدَّرْنَا كُلَّ فَصْلٍ بِأَصْلِهِ الَّذِي يَتَفَرَّعُ مِنْهُ مَسَائِلُهُ، حَتَّى تَكُونَ الْجُمْلَةُ الْمُوجَزَةُ شَامِلَةً لِلتَّفْصِيلِ، وَيَكُونَ الْمُجِيبُ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ مُجِيباً عَنِ الْبَابِ الْمَبْسُوطِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ

وَأَقْرَبِهِ»(١)، فكان منهجه في معجمه "مقاييس اللغة" أن يورد كمّا كبيراً من الكلمات التي حصل فيها مثل هذا الإبدال، فأدى كل صامت دلالة تختلف عن الدلالة التي أداها صامت آخر، ومن هذه الأمثلة ما يأتي:

١- فرَّ: الفاء والراء أصول ثلاثة:

الأول: الانكشاف، في قولهم: فرّ عن أسنانه إذا تبسم أي: كشف عنها.

الثاني: جنس من الحيوان في مثل: الفرير وهو ولد البقرة.

الثالث: الخفة والطيش. يقال: رجل فرفار بمعنى طائش(٢).

فزَّ: يدلُّ على الخفة.

فشَّ: يدلُّ على الانتشار وقلة التماسك.

فصَّ: يدلُّ فَصْلٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ.

فضَّ: يدلُّ على التفريق والتجزئة.

فظَّ: يدلُّ على الكراهة.

فغَّ: يدلُّ على محاكاة الصوت. يقولون: الفغفغة (٣).

كما أورد ابن فارس في مقاييسه جملة من الألفاظ الأخرى التي تتألف من مادة واحدة وهي "الفاء والراء" وصويت ثالث يغير معنى هذه المادة كلما حصل إبدال، ومن هذه الألفاظ، فيقول: باب الْفَاءِ وَالرَّاءِ وَمَا يَثْلِثُهُمَا، ويذكـــر فيه المواد: فرز، فرس، فرش، فرص، فرض، فرط، فرع، فرغ، فرق،

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ١/٣.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة، مادَّة: ٤/٤٣٨.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٤/٤٤٠-٤٤١.

فرك، فرم، فره، فري، فرت، فرث، فرج، فرح، فرخ، فرد، الخ...[1].

وهكذا يسير في جميع معجمه بان يذكر فاء الكلمة وعينها وما يثلثهما فينوع لام الكلمة بحسب ورودها في كلام العرب وما تدلُّ عليه.

❖ **السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)**: درس قضيَّة المناسبة بين الصوت والدلالة، أو اللفظ والمعنى، فذكر في كتابه "المزهر: باب مناسبة الألفاظ للمعاني" قائلاً: فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها، وكيف فاوت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعاني، فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملاً أو صوتاً، وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملاً وأعظم حساً...»[2].

فالسيوطي هو من صرح بفكرة المناسبة هذه، وذلك بعدما جمع مادته من مؤلفات سابقيه كسيبويه، وابن جني، والثعالبي، وابن دريد، ثم تابعه علماءِ عرب محدثون في هذه القضية، وقد أورد السيوطي في المزهر كماً كبيراً من الألفاظ التي أتى بها هؤلاء، وكلها تدور في فلك الإبدال وما تحدثه الصويتات المبدلة من أثر في تغيير دلالة الكلمات، ومن هذه الألفاظ، فمن هذه الأمثلة:

١- الجَمْجَمة: أن يخفي الرجل في صدره شيئاً ولا يبديه.

الحَمْحَمة: أن يردد الفرس صوته ولا يصهل.

الدحداح: الرجل القصير.

الرحراح: الإناء القصير الواسع.

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٤/٤٨٥-٥٠٠.

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: ١/٤٤.

الجَفْجَفة: هزيز الموكب وحفيفه في السير.

الحَفْحفة: حفيف جناحي الطائر.

الجرجرة: صوت جرع الماء في جوف الشارب.

الخرخرة: صوت تردد النفس في الصدر.

الكهكهة: صوت ترديد البعير هديره.

القهقهة: حكاية استغراب الضحك.

الوعوعة: صوت نباح الكلب إذا ردده.

الوقوقة: اختلاط أصوات الطير.

الوكوكة: هديل الحمام ... إلخ [(١)].

٢- الجف: وعاء الطلعة إذا جف.

الخف: الملبوس.

الشازب: الضامر من الإبر وغيرها.

الشاصب: أشد ضمراً من الشازب[(٢)].

٣- النقش: في الحائط.

الرقش: في القرطاس.

الوشم: في اليد.

الوسم: في الجلد.

الوشي في الثوب [(٣)].

---

(١) ينظر: المزهر في علوم اللغة: ١/٤٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١/٤٥.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١/٤٥.

ثمَّ بعد ذلك يطرق مسألة نشوء اللغة فقال: سواءٌ قلنا بالتوقيف أم بالاصطلاح أن اللغة لم تُوضع كلها في وقت واحد بل وقعت متلاحقة متتابعة اختلافُ لغاتِ العرب إنما جاءَ من قِبَل أنَّ أول ما وُضِع منها وُضِعَ على خلاف وإن كان كله مسوقا على صحة وقياس ثم أَحدثوا من بعدُ أشْيَاء كثيرة للحاجة إليها غير أنها على قياس ما كان وُضِعَ في الأصل مختلفا، ويجوز أن يكونَ الموضوعُ الأولُ ضَرْباً واحدا ثم رأى مَنْ جاءَ بعد أن خالف قياسَ الأولِ إلى قياسٍ ثانٍ جارٍ في الصحة مَجْرَى الأوَّل[١]، فهو هنا ينبِّه إلى مسألة تطوُّر اللغة بتطوُّر حاجات الناس، وأنَّ نشوؤها يحتمل أن يكون توقي، كما يحتمل أن يكون بالمواضعة والاصطلاح.

وهذه جهود عظيمة ومتقدِّمة في الدراسات الصوتيَّة، وإن كان سبق في كثير منها، ففضل السبق للسابق، فإنَّ فضل البيان، والزيادة في التفريع والتأصيل ثابت للاحق.

المطلب الثاني: الدراسات القرآنيَّة والبلاغيَّة والعقديَّة أو الكلاميَّة:

❖ الدراسات القرآنيَّة

كانت جهود الدراسات القرآنيَّة على نوعين: كتب القراءات، وكتب إعجاز القرآن الكريم.

فأمّا كتب القراءات فانتهى كثير منها بإعطاء مصطلحات صوتية اقترنت بالنحو تارة وباللغة تارة أخرى، وتمحضت للصوت القرآني بينهما، وكان ذلك في بحوث متميزة برز منها: الإدغام، الإبدال، الإعلال، الإخفاء، الإظهار، الإشمام، الإمالة، الإشباع، المدّ، التفخيم، الترقيق مما اصطنعه علماء الأداء الصوتي للقرآن الكريم كما سيأتي في الفصول القادمة من هذا الكتاب بإذن الله.

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١/٤٦.

كما أن علماء التجويد انطلقوا من الدرس الصوتي لتأصيل علم التجويد، فوضعوا عشرات المصطلحات الخاصة بالأداء الصوتي الدقيق للقرآن الكريم، فيما يُسَمِّيه علماء الأصوات اليوم بـــ"علم وظائف الأصوات"، ومنها صفات الحروف: كالهمس والجهر، والشِّدَّة والرخاوة والتوسُّط، والاستعلاء والاستفال، وغير ذلك كالمد واللين والانحراف والتكرير والتفشي والاستطالة والإدغام.

وأمَّا كتب إعجاز القرآن الكريم، فعلى الرغم من أنَّ بحث الصوت اللغوي كان متفرِّقاً وموزَّعاً في مفردات حية، تتابع عليها جملة من الأعلام المبرزين الذين اتسمت جهودهم بالموضوعية والتجرد وبيان الحقيقة، منهم: علي بن عيسى الرماني (ت: ٣٨٦هـــ)، وأبو بكر الباقلاني (ت: ٤٠٣هـــ)، وأبو عمروٍ الداني (ت: ٤٤٤هـــ)، وجار الله الزمخشري (ت: ٥٣٨هـــ)، وإبراهيم بن عمر الجعبري (ت: ٧٣٢هـــ)، وبدر الدين الزركشي (ت: ٧٩٤هـــ)، وجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـــ)، وأبو الثناء الآلوسي (ت: ١٢٧٠هـــ).

وسنكتفي أبرز معالم جهد الرمَّانيُّ فيما يأتي؛ لأنَّ من جاء بعده لم يزد عليه كثيراً، وإنَّما كان سائرا على خطاه ودائرا في فلكه، فهم عيال عليه في هذا الباب:

كان من فيها أبرز الدارسين للصوت اللغوي وأقدمهم سبقاً إلى الموضوع، وأولهم تمرساً فيه **علي بن عيسى الرمانيّ**، إلا أنه بالضرورة قد مزج بين دراسة الأصوات وعلم المعاني مطبقاً تجاربه في باب التلاؤم تارة، ومتخصصاً لدراسة فواصل الآيات بلاغياً كما سيأتي في موضعه.

أما التلاؤم الصوتي عند الرماني فهو نقيض التنافر، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف، لأن تأليف الكلام على ثلاثة أوجه: متنافر، ومتلائم في

الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا[1].

ويعود الرماني بالتلاؤم إلى تجانس الأصوات، ولما كانت أصوات القرآن متجانسة تماماً، فإن القرآن كله متلائم في الطبقة العليا، وذلك بيّن لمن تأمله، والفرق بين القرآن وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم في الطبقة الوسطى، وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض[2]، ويبحث الرماني التلاؤم في أصوات القرآن من وجوه:

١- السبب في التلاؤم ويعود به إلى تعديل الحروف في التأليف، فكلما كان أعدل كان أشدَّ تلاؤماً.

٢- الفائدة في التلاؤم، يعود بها إلى حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة.

٣- ظاهرة التلاؤم، ويعود بها إلى مخارج الحروف في اختلافها، فمنها ما هو من أقصى الحلق، ومنها ما هو من أدنى الفم، ومنها ما هو في الوسط بين ذلك.

«والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد. وذلك يظهر بسهولته على اللسان، وحسنه في الأسماع، وتقبله في الطباع، فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات؛ ظهر الإعجاز للجيد الطباع البصير بجواهر الكلام»[3].

---

(١) النكت في إعجاز القرآن، الرمَّانيِّ: ٩٤.

(٢) المصدر نفسه: ٩٥.

(٣) المصدر نفسه: ٩٦.

❖ الدراسات البلاغيَّة:

ونجد ملامح أساسية لهذا العلم عند علماء البلاغة الذين تعرَّضوا لمسائل الفصاحة، كفصاحة الكلمة والكلام، وموضوع اللَّفظ والمعنى في النص الأدبيِّ، فاشتملت هذه الدراسات على خصائص الأصوات فقد بحثت على أيدي علماء متمرسين كالشريف الرضي (ت: ٤٠٦هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) وابن سنان الخفاجي (ت: ٤٦٦هـ) وأبي يعقوب السكاكي (ت: ٦٢٦هـ) وأضرابهم:

وكانت مباحثهم طبقاً لتوجه علم المعاني، وتزاحم الأصوات في قبول ذائقتها النطقية أو السّمعية ورفضها، من خلال: تنافر الحروف، تلاؤم الأصوات، التعقيد اللفظي، التعقيد المعنوي، فصاحة اللفظ المفرد؛ مما هو معلوم في مثل هذه المباحث مما يتعلق بالصوت منها، وخلصت إلى القول بخلو القرآن العظيم من التنافر في الكلمات، أو التشادق في الألفاظ، أو العسر في النطق، أو المجانبة للأسماع، وكونه في الطبقة العليا من الكلام في تناسقه وتركيبه وتلاؤمه.

أمَّا ما يتعلق بالأصوات من مخارجها في موضوع التنافر فلهم بذلك رأيان:

الأول: إن التنافر يحصل بين البعد الشديد أو القرب الشديد وقد نسب الرماني هذا الرأي إلى الخليل «وذلك أنه إذا بَعُد الشديد كان بمنزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال، ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال»[1].

(١) النكت في إعجاز القرآن: ٩٦.

الثاني: أن التنافر يحصل في قرب المخارج فقط وهو ما يذهب إليه ابن سنان الخفاجي (ت: ٤٦٦هـ) بقوله: «ولا أرى التنافر في بعد ما بين مخارج الحروف وإنما هو في القرب. ويدل على صحة ذلك الاعتبار، فإن هذه الكلمة «ألم» غير متنافرة، وهي مع ذلك مبنية من حروف متباعدة المخارج- لأنَّ الهمزة من أقصى الحلق، والميم من الشفتين، واللام متوسطة بينهما. فأما الإدغام والإبدال فشاهدان على أنَّ التنافر في قرب الحروف دون بعدها، لأنَّهما لا يكادان يردان في الكلام إلا فراراً من تقارب الحروف، وهذا الذي يجب عندي اعتماده، لأنَّ التتبع والتأمل قاضيان بصحته»[١].

وقد يتبعه بالرد على هذا الرأي ابن الأثير (ت: ٦٣٧هـ) فقال: «أما تباعد المخارج فإن معظم اللغة العربية دائر عليه... ولهذا أسقط الواضع حروفاً كثيرة في تأليف بعضها مع بعض استثقالاً واستكراهاً، فلم يؤلف بين حروف الحلق كالحاء والخاء والعين، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف، ولا بين اللام والراء، ولا بين الزاي والسين، وكل هذا دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخارج، دون المتقارب»[٢].

وبعيداً عن هذا وذاك، فإنَّ الطبيعة التركيبية في اللغة العربية قد تمرَّست في تعادل الأصوات وتوازنها، مما جعل لغة القرآن الكريم في الذروة من طلاوة الكلمة، والرقة في تجانس الأصوات، لذلك فقد استبعد العرب جملة من الألفاظ لا تنسجم صوتياً في تداخل حروفها، وتنافر مخارجها، سواء أكانت قريبة أم بعيدة «فإن الجيم لا تقارن الفاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير.

---

(١) سر الفصاحة: ٩١.

(٢) المثل السائر: ١٥٢.

والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير»(١).

وفي هذا دلالة على «امتياز اللغة العربية في مجموع أصوات حروفها بسعة مدرجها الصوتي سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها، وتمتاز من جهة أخرى بتوزعها في هذا المدرج توزعاً عادلاً يؤدي إلى التوازن والانسجام بين الأصوات»(٢).

وكان التنافر في أصوات الكلمة موضع عناية عند السكاكي (ت: ٦٢٦هـ) ومن بعده القزويني (ت: ٧٣٩هـ) عند مباحث فصاحة المفرد، وهي خلوصه من تنافر الحروف والغرابة، ومخالفة القياس اللغوي، وعند فصاحة الكلام، وهي خلوصه من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات، والتعقيد بشقيه اللفظي والمعنوي، وهي موضوعات جرى على إدراجها في الموضوع علماء المعاني والبيان بعد السكاكي والقزويني إدراجاً تقليدياً للقول بسلامة القرآن الكريم من التنافر(٣).

ولا حاجة بنا إلى تأكيد هذا القول فهو أمر مفروغ عنه في القرآن الكريم، وبقيت مفردات الصوت اللغوي فيه موضوع عناية البحث.

❖ الدِّراسات العقديَّة أو الكلاميَّة:

كثر الكلام والجدال بين علماء العقيدة أو الكلام في مسألة بالغة الخطورة، وهي تتَّصل بالبحث الصوتيِّ اتِّصالا مباشرا، وهي مسألة صفة كلام الله سبحانه وما يتبع ذلك فيما يتعلَّق بالقرآن الكريم، فكثر الكلام والردَّ في

---

(١) البيان والتبيين: ١/٦٩.

(٢) ينظر: بحوث لغوية، أحمد مطلوب: ٢٨.

(٣) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني: ٧٢، ٧٩.

هذه المسألة أكثر من أيِّ مسألة أخرى منذ منتصف القرن الثاني الهجريِّ فكثر النقاش والرد، والتأليف في هذه المسألة بين أهل العلم من أهل الحقِّ أتباع الكتاب والسنَّة وأهل الخلاف والزيغ من أهل الكلام، وما أن يطالعنا القرن الثامن حتَّى نرى جهبذين عظيمين وعالمين بحرين فرعا صنوف العلم فرعاً، وفتحاً باب الاجتهاد والبحث بعد أن كان موصدا، وهما شيخ الإسلام ابن تيميَّة وتلميذه البارُّ ابن القيِّم رحمهم الله، فكانت لهم تأصيلات في الدراسات الصوتيَّة عظيمة، وردود على المخالفين لا تقلُّ أهمية عن تأصيلاتهما رحمهما الله تعالى، وسنذكر فيما يأتي طرفا من جهودهما:

١- شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله (ت: ٧٢٨هـ): ذكر شيخ الإسلام رحمه الله على حقيقة حدوث الصوت فقال: «الصوت لا يولّده شيء واحد بل لا بد من شيئين من جسمين يقرع أحدهما الآخر أو يقلع عنه، فَيَتَوَلَّدُ الصَّوْتُ الْمَوْجُودُ فِي أَجسام العَالَم وهذان أصلان للصوت الذي تولد عنهما»(١)، ويستمرّ في ضرب الأمثلة على هذه النظريَّة وكيف يصدر الإنسان صوته، وكلامه، ومبيناً أمراً عظيماً فيما يتعلَّق بكلام الله فيقول: «إِنَّ الصَّوْتَ الْمَسْمُوعَ مِنْ لَفْظ مُحَمَّدٌ وَيَحْيَى وَإِبْرَاهِيمُ فِي الْقُرْآنِ هُوَ مِثْلُ الصَّوْتِ الْمَسْمُوعِ مِنْ ذَلِكَ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ وَكِلا الصَّوْتَيْنِ مَخْلُوقٌ. وَأَمَّا الصَّوْتُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ اللَّهُ بِه فَلا مِثْلَ لَهُ لا يُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَكَلامُ اللهِ هُوَ كَلامُهُ بِنَظْمِهِ وَنَثْرِهِ وَمَعَانِيهِ. وَذَلِكَ الْكَلامُ لَيْسَ مِثْلَ كَلامِ الْمَخْلُوقِينَ»(٢).

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى: ٤/١٣١، وبيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: ٥/٢٠٤-٢٠٥، ومنهاج السنة النبوية: ١/٢٨٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٢/٧٧، ومجموعة الرسائل والمسائل: ٣/٦٢.

ثمَّ ينتقل إلى الأصوات عامَّة وطريقة حدوثها كما في الرعد فيقول رحمه الله: «أَمَّا "الرَّعْدُ وَالْبَرْقُ" فَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ فِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ الرَّعْدِ قَالَ: ((مَلَكٌ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ مَعَهُ مخاريق مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ)) وَفِي مَكَارِمِ الأَخْلاقِ للخرائطي: عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ الرَّعْدِ فَقَالَ: "مَلَكٌ وَسُئِلَ عَنْ الْبَرْقِ فَقَالَ: مخاريق بِأَيْدِي الْمَلائِكَةِ -وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ- مخاريق مِنْ حَدِيدٍ بِيَدِهِ". وَرُوِيَ فِي ذَلِكَ آثَارٌ كَذَلِكَ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ أَقْوَالٌ لا تُخَالِفُ ذَلِكَ. كَقَوْلِ مَنْ يَقُولُ: إنَّهُ اصْطِكَاكُ أَجْرَامِ السَّحَابِ بِسَبَبِ انْضِغَاطِ الْهَوَاءِ فِيهِ فَإِنَّ هَذَا لا يُنَاقِضُ ذَلِكَ فَإِنَّ الرَّعْدَ مَصْدَرُ رَعَدَ يَرْعَدُ رَعْداً. وَكَذَلِكَ الرَّاعِدُ يُسَمَّى رَعْداً. كَمَا يُسَمَّى الْعَادِلُ عَدْلاً. وَالْحَرَكَةُ تُوجِبُ الصَّوْتَ وَالْمَلائِكَةُ هِيَ الَّتِي تُحَرِّكُ السَّحَابَ وَتَنْقُلُهُ مِنْ مَكَانٍ إلَى مَكَانٍ وَكُلُّ حَرَكَةٍ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ فَهِيَ عَنْ الْمَلَائِكَةِ وَصَوْتُ الإِنْسَانِ هُوَ عَنْ اصْطِكَاكِ أَجْرَامِهِ الَّذِي هُوَ شَفَتَاهُ وَلِسَانُهُ وَأَسْنَانُهُ، وَلَهَاتُهُ وَحَلْقُهُ. وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَكُونُ مُسَبِّحاً لِلرَّبِّ. وَآمِراً بِمَعْرُوفٍ وَنَاهِياً عَنْ مُنْكَرٍ»(١).

ثمَّ يحدِّد معنى السمع لغة وشرعا ويستدلّ على ذلك من القرآن الكريم فيقول رحمه الله: «لفظ السمع يراد به إدراك الصوت، ويراد به معرفة المعنى مع ذلك، ويراد به القبول والاستجابة مع الفهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾(٢) ثم قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ على هذه الحال التي هم عليها لم يقبلوا الحق ثم ﴿لَتَوَلَّوْا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، فذمهم بأنهم لا يفهمون

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٤/٢٦٣-٢٦٤.

(٢) سورة الأنفال: ٢٣.

القرآن ولو فهموه لم يعملوا به»(١).

٢- شمس الدين بن القيِّم (ت: ٧٤٢هـ): سار الإمام ابن القيِّم رحمه الله على خطى شيخه وأستاذه شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله، في الانتصار لكتاب الله تعالى وسنَّة النبيِّ ﷺ، وأكثر من الردِّ على المخالفين، فتناول مسائل في الصوت كانت من الأهمِّيَّة بمكان فهو رحمه الله يبيِّن ثلاث مسائل في هذا الصدد ويبيِّن ما فتح الله به عليه من الحكم الربانيَّة في ذلك وفيما يأتي بيان لهذه المسائل:

أ - حقيقة الصوت وماهيَّته: قال رحمه الله في ماهيَّة الصوت: «الصوت عرض لا ثبات له»(٢).

ب- كيفيَّة حدوث الصوت عند الإنسان والتعبير به عن المعاني التي في نفسه: بيَّن رحمه الله جهاز النطق عند الإنسان فشرحه وبيِّن حقيقته وحدِّد ماهيَّته فقال: «أمَّا الفم فمحلُّ العجائب وباب الطعام والشراب والنفس والكلام ومسكن اللسان الناطق الذي هو آلة العلوم وترجمان القلب ورسوله المؤدي عنه، ولما كان القلب ملك البدن ومعدنا للحرارة الغريزية فإذا دخل الهواء البارد وصل إليه فاعتدلت حرارته وبقي هنالك ساعة فسخن واحترق فاحتاج القلب إلى دفعه وإخراجه فجعل أحكم الحاكمين إخراجه سبباً لحدوث الصوت في الحنجرة والحنك واللسان والشفتين والأسنان مقاطع ومخارج مختلفة وبسبب اختلافها تميزت الحروف بعضها عن بعض ثم ألهم العبد تركيب تلك الحروف ليؤدي بها عن القلب ما يأمر به... ثم أنه سبحانه جعل الحناجر مختلفة

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة: ١٠٢.

(٢) التبيان في أقسام القرآن: ٣٠٧.

الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة لتختلف الأصوات باختلافها فلا يتشابه صوتان كما لا تتشابه صورتان، وهذا من أظهر الأدلة فإن هذا الاختلاف الذي بين الصور والأصوات على كثرتها وتعددها فقلما يشتبه صوتان أو صورتان ليس في الطبيعة ما يقتضيه، وإنَّما هو صنع الله الذي أتقن كل شيء وأحسن كل شيء خلقه فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين فميز سبحانه بين الأشخاص بما يدركه السمع والبصر»[1].

ت- عمليَّة السمع: قال رحمه الله: «ثم اعدل إلى الأذنين وتأمل شقهما وخلقهما وإيداع الرطوبة فيهما ليكونا عوناً على إدراك السمع وجعلهما مرة لتمتنع الهوام عن الدخول في الأذن وحوطهما سبحانه بصدفتين يجمعان الصوت ويؤديانه إلى الصماخ وجعل في الصدفتين تعريجات لتطول المسافة فتنكسر حدة الصوت ولا تلج الهوام دفعة بل تكثر حركاتها فينتبه لها فيخرجها وجعل العينين مقدمتين والأذنين مؤخرتين، لأن العينين بمنــزلة الطليعة والكاشف والرائد الذي يتقدم القوم ليكشف لهم وبمنــزلة السراج الذي يضيء للسالك ما أمامه، وأما الأذنان فيدركان المعاني الغائبة التي ترد على العبد من أمامه ومن خلقه وعن جانبيه فكان جعلهما في الجانبين أعدل الأمور، فسبحان من بهرت حكمته العقول، وجعل للعينين غطاء، لأنَّ مدرك الأذن الأصوات ولا بقاء لها فلو جعل عليهما غطاء لزال الصوت قبل ارتفاع الغطاء فزالت المنفعة المقصودة وأما مدرك العين فأمر ثابت والعين محتاجة إلى غطاء يقيها وحصول الغطاء لا يؤثر في الإدراك وقال بعض أهل العلم عينا الإنسان هاديان وأذناه رسولان إلى قلبه

(١) التبيان في أقسام القرآن: ٣٠٩-٣١٠، ٤١١-٤١٢، ومفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: ٢١٧/١، ٢٦٨.

ولسانه ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريدان والقلب ملك فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث خبثت جنوده»[1].

❖ المباحث الصوتية التي درسها العرب قديماً:

لقد قدم العرب والمسلمون مفصّلاً صوتياً مركباً من مظاهر البحث الصوتي يمثل غاية في الدقة والتعقيد، لم يستند إلى أجهزة متطورة، بل ابتكرته عقول علمية نيرة، وأذهان صافية، تجردت للحقيقة، وتمحضت للبحث العلمي، مخلصة فيه النية، وكانت الخطوط العريضة لهذا العطاء على وجه الإجمال عبارة عن مفردات هائلة، ونظريات متراصة، يصلح أن يشكل كل عنوان منها فصلاً من باب، أو باباً في كتاب، يستقرىء به الباحث ما قدمه علماء العربية من جهد صوتي متميز واكبه الغربيون بعد أن عبّد طريقه العرب والمسلمون، هذه المفردات في عنوانات ريادية تمثل الموضوعات الآتية في نظرية الصوت:

١- تعرف الصوت وماهيَّته.

٢- ظاهرة حدوث الصوت.

٣- معالم الجهاز الصوتي عند الإنسان.

٤- أنواع الأصوات العالميَّة.

٥- درجات الأصوات في الاهتزازات.

٦- بدايات الأصوات عند المخلوقات.

٧- علاقة الأصوات باللغات الحيّة.

٨- أعضاء النطق وعلاقتها بالأصوات.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن: ٤٠٩-٤١٠.

٩- الأصوات الصادرة دون أعضاء نطق.

١٠- علاقة السمع بالأصوات.

١١- مقاييس الأصوات امتداداً أو قصراً.

١٢- تسميات الأصوات وأصنافها.

١٣- الأصوات الزائدة على حروف المعجم.

١٤- الزمان والصوت "مسافة الصوت".

١٥- المكان والصوت "مساحة الصوت".

١٦- المقاطع الصوتية بالإضافة إلى مخارج الأصوات.

١٧- النقاء الصوتيّ.

١٨- الموسيقي والصوت.

١٩- العروض والصوت.

٢٠- النبر والصوت.

٢١- التنغيم والصوت.

٢٢- التقريب بين الأصوات.

٢٣- الرموز الكتابية والأصوات.

٢٤- إئتلاف الحروف وعلاقته بالأصوات.

هذه أهم مفردات المصطلح الصوتي في نظرية الصوت اللغوي عند العرب توصلنا إليها من خلال عروض القوم في كتبهم، وطروحهم في بحوثهم، وأن لم يشتمل عليها كتاب بعينه، وإنَّما جاءت استطراداً في عشرات التصانيف، ونحن

لا نريد حصرها بقدر ما نريد من التنبيه، إنَّ هذه الموضوعات التي سبق إليها العرب، هي التي توصل إليها الأوروبيين اليوم، ومنها استقوا معلوماتهم الأولية، ولكنهم أضافوا وجددوا وأبدعوا، وتمرست عندهم المدارس الصوتية الجديدة، تدعمها أجهزة العلم، والأموال الطائلة، والخبرات الناشئة، مع الصبر على البحث، والأناة في النتائج.